مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Etudes sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

جامعة القاضي عياض
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

التاريخ والديناميات الاجتماعية

متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي

تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

الجزء الثاني

2024

التاريخ والديناميات الاجتماعية
متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي
تنسيق :
محمد رابطة الدين و محمد الأكلع
الجزء الثاني
2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Etudes sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

جامعة القاضي عياض
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

Histoire et dynamiques sociales

Mélanges en l'honneur du professeur Hassan HAFIDI ALAOUI

Coordination :
Mohamed RABITATEDDINE et Mohamed ELAKLAA

Tome 2

2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Etudes sur les Ressources,
Mobilité et Attractivité - **LERMA**

MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

التاريخ والديناميات الاجتماعية

متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي

تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

الجزء الثاني

2024

محفوظة جميع الحقوق
©Copyright

الـتـاريـخ والـديناميات الاجتماعيـة

متنوعـات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علـوي

تنسيـــــــــق: محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

مـنـشـــــورات: مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية (LERMA)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة القاضي عياض، مراكش.

الإيداع القانوني : 2024MO0741

ردمـــــــــــك : 978-9920-8894-0-7

الطبـعـة الأولى: 2024

الطباعة والإخراج الفني: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط

دار أبي رقراق للطباعة والنشر
10 شارع العلويين رقم *3*، حسان – الرباط
الهاتف : *83 75 20 37 05* - الفاكس : *89 75 20 37 05*
E-mail : editionsbouregreg2015@gmail.com

جوانب من النشاط الحرفي للرقيق بالمغرب في العصر الوسيط

عبد الإله بنمليح[*]

تكتنف البحث في تاريخ الرقيق[1] في مغرب العصر الوسيط صعوبات وعوائق جمة، على رأسها شح المادة المصدرية وقصورها، إلى حد كبير، عن العرض للحياة اليومية لهذه الشريحة الاجتماعية التي تتمتع، في المقابل، بحضور ظاهر في موروثنا الثقافي. ويتأكد ذلك عندما يتعلق الأمر بالنبش في موضوع دقيق ومحدد، محفوف ببياضات عريضة، من قبيل موضوع الرقيق والحرف في المغرب خلال العصر الوسيط؛ إذ لم يحظ هذا الجانب باهتمام خاص لدى المؤرخين والجغرافيين والرحالة والفقهاء والأدباء والكتاب. ربما لعدم لفته الانتباه كما هو حال حضور الرقيق في البلاط والجيش والبيوت، والجواري في المنتديات والمجالس والمسامرات. كما تحتاج صورة العبد/الأمة في مؤلفات هؤلاء إلى قراءة متأنية ومراجعة شاملة، لما تختزله من احتقار ودونية، حيث تقترن هذه الصورة بتولي العبد الأسود مهمة اغتيال خليفة أو أمير أو قائد، أي القيام بمهمة «غير نظيفة،» أو بخدمة سيده في البيت ورعاية شؤونه وتلبية حاجاته. هذا في وقت تم فيه إهمال ما كان بيد هذا العبد/الأمة من صنعة.

فهل بإمكاننا والحالة هذه أن نقدم صورة عما كانت تتقنه يدي العبد/الأمة في مغرب العصر الوسيط؟

ارتأينا تناول موضوع النشاط الحرفي لرقيق مغرب العصر الوسيط من خلال العنصرين التاليين: البحث في النشاط الحرفي للرقيق، ثم محاولة تحديد مجالات عمل الرقيق.

• البحث في النشاط الحرفي لرقيق مغرب العصر الوسيط: حدوده وآفاقه

نُعت البحث في تاريخ الرقيق في بلاد المغرب، إلى وقت قريب، بكونه «محتشما،» فقد ظل هذا الموضوع مغمط الحق، مغلفا بالتعميمات، من قبيل إشارات إلى رقيق العالم

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهراز فاس.

(1) تم اعتماد مصطلح الرقيق لكونه يستغرق الذكور والإناث، في حين يختص مصطلح العبيد بالذكور ومصطلح الإماء بالإناث. انظر بهذا الصدد: عبد الإله بنمليح، **الرق في بلاد المغرب والأندلس** (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2004)، 16-17.

الإسلامي بعد قيام دولة بني أمية، أنه كان من بينهم «صناع ماهرون،»[1] وأنه تم استخدام ذوي المواهب الفكرية والفنية منهم في «أعمال التجارة والصناعة.»[2]

غير أنه ولحسن الحظ وجدت إلى جانب ذلك بحوث، على قلتها، استطاع أصحابها أن ينبهوا إلى موضوع حرف الرقيق، معبرين عن وعيهم التام بصعوبة اقتحامه، وداعين إلى تعميق البحث فيه، عبر مساءلة المصادر وتنويعها.

تحدث أحد هؤلاء، وهو الباحث المرحوم الحسين بولقطيب، عن العبيد في العالم الإسلامي الوسيط، وانتهى إلى القول بامتهانهم حرفا وضيعة، أعرض عنها سادتهم،[3] ويؤكد ذلك ما وصف به أحدهم حرفة الشمع، في فاس في التاريخ الحديث، بقوله «كانت هذه الحرفة الجميلة بفاس لا يتخذها إلا أعيان القبائل.»[4] في حين دعا الباحث إبراهيم القادري بوتشيش إلى التعويل على كتب الأحكام والنوازل الفقهية في سبيل الكشف عن حياة عبيد مغرب القرن 5ه/11م.[5] ووردت لديه إشارة وحيدة تهم الجانب الحرفي من نشاطات العبد المغربي، تقول: «أما على صعيد الإنتاج المادي فقد اقتصر العبيد على بعض الأعمال الصناعية المحدودة.»[6] وهي إشارة استندت إلى مصدر تاريخي تقليدي هو كتاب «أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين» لأبي بكر بن علي الصنهاجي، الملقب بالبيذق. فهل خانت الباحث المصادر التي عول عليها في بداية مقاله؟

واعتمادا على مصادر مسيحية يحدد الباحث البلجيكي (Charles VERLINDEN)، أحد المتخصصين في تاريخ العبودية الأوروبية، مجالات عمل العبيد في إسبانيا الإسلامية، في القطاع الزراعي مثل إدارة عجلات الناعورات وطحن الحبوب والاشتغال في المطاحن، فضلا عن مجالات حرفية كالبناء والتعدين، إلى جانب الصناعات المنزلية والخدمة في البيوت.[7]

---

(1) عبد السلام الترمانيني، **الرق: ماضيه وحاضره** (الكويت: مطابع دار القبس، 1985)، 57.

(2) المرجع نفسه.

(3) الحسين بولقطيب، «أوضاع الرقيق في المجتمع العربي الوسيط،» **مجلة النهج**، العدد 32، السنة السابعة (1990)، 143.

(4) محمد بن عبد الكبير بن هاشم الكتاني الحسني [ت 1362ه/1943م]، **لواقح الأزهار الندية فيمن تولى وأقبر من القضاة والعدول وغيرهما، بهذه الحضرة الإدريسية**، دراسة وتحقيق محمد العمراني (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس رقم 14، ط.1، 2022)، 290.

(5) إبراهيم القادري بوتشيش، «مسألة العبيد بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين،» ضمن كتاب **الإسلام السري في المغرب العربي** (القاهر: سينا للنشر، 1995)، 230.

(6) المرجع نفسه، ص 235.

(7) Charles VERLINDEN, *l'Esclavage dans l'Europe médiévale*, T. 1 (*Brugge*: De *Tempel*, *1955),* 239.

وتقدم دراسة أليساندرو ستيلا (Alessandro STELLA) عن «العبودية في إسبانيا الحديثة،» أنموذجا لطبيعة عمل العبيد في المناجم بجبال الشارات الإسبانية خلال أواسط القرن 16م، وكيف استحضرت الدولة الإسبانية، الجانب المادي، أي ما يكلفه عمل العبد من نفقات تغطي المعيشة واللباس والحراسة والضرائب وخسائر فقدانه أو مرضه أو موته، وتوقف العمل بسبب سوء الأحوال الجوية، أو لوجود خصاص في المواد.[1] ويبدو أن تكلفة عمل العبيد كانت مشجعة، إذ اقتنعت الدولة الإسبانية بجلبهم لمباشرة العمل في هذه المناجم بدل العمال الأحرار. لكن السؤال هو أين نحن من هذه المعلومات الغنية عن عمل العبيد في المناجم المغربية؟

يُظهر البحث في النشاط الحرفي لرقيق مغرب العصر الوسيط أنه يظل محاولة لكشف النقاب عن بعض جوانبه من خلال إشارات مبعثرة في مصادر متنوعة: تاريخية وجغرافية وفقهية وأدبية. ذلك أن المراهنة على مصادر معينة أو جنس من الكتابة بالنسبة لموضوع الدراسة لا يفي بالغرض المطلوب. ونضرب لذلك مثلا بكتب النوازل الفقهية، التي غابت عنها، وهي التي حفلت بفتاوى عديدة عن الرقيق، مجالات استخدامهم في الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها، وهو أمر لا يمكن تفسيره إلا بكون الأسئلة الواردة على المفتين صادرة عن ملاك العبيد أي السادة، وليس من العبيد أنفسهم. لذلك لا نعجب من طغيان موضوع العلاقات بين الأسياد وعبيدهم على ما سواه، على الرغم مما شاب هذه العلاقات من غموض في أحايين كثيرة.

ومع ذلك فإننا لا نعدم إشارات مضيئة، مثل مسألة تملص بعض الملاك من أداء الضرائب عن عبيدهم وإمائهم، بادعاء أنهم أحرار.[2]

كما يمكن تفسير هذا الغياب بالنظرة الدونية للنخبة العالمة إلى العمل اليدوي، التي تجلت في صرف ذوي الصنائع عن مجالسة أرباب الشأن. فقد نصح القاضي أبو بكر محمد بن الحسن المرادي[3] الأمير المرابطي: «ولا تجالس أصحاب الصنائع، فإنهم يتحدثون بك على صنائعهم، ومع السفلة من جلسائهم ومهنتهم.» فكيف تصبح النصيحة المتعلقة بالصناع من العبيد؟

(1) Alessandro STELLA, «l'Esclavage en Andalousie à l'époque moderne,» In: *Annales* Économies, Sociétés, Civilisations, 47e année, N°1 (1992): 36.

(2) راجع أنموذجا لذلك لدى أبي العباس أحمد الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، ج. 9، تخريج جماعة بإشراف محمد حجي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، 582.

(3) أبو بكر المرادي الحضرمي، **كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة**، تحقيق سامي النشار (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1981)، 78.

أما الزجال الأندلسي أبو بكر ابن قزمان، المتوفى عام 554هـ/1160م، فإنه لم يخف، في إشارة دالة، تبرمه من اشتغال أمة بنسج الصوف، عندما عمد إلى تصغير صفتها من خادم إلى خُديمة:

يا أمور الزمان وشغل البال
لم نفكر في الحر وقت زال
حتى ريت الخديمة زاد المال
تبسط الصوف وتنزع الطيبري[1]

• مجالات عمل الرقيق في مغرب العصر الوسيط

يرد بخصوص عمل الرقيق في مغرب العصر الوسيط مصطلحان اثنان:

- الأول هو الخدمة، وهو الأكثر شيوعا لارتباطه بمناحي عديدة من حياة الرقيق، تتراوح بين البلاط[2] والإدارة [3]والبيت[4] والعلم والتصوف،[5] بل إن المصطلح لا يحمل مدلولا استعباديا في أحيان كثيرة.[6]

- الثاني هو الصنعة[7] وهو الأقل شيوعا، ولذلك دلالته، كما سنتبين فيما بعد. ويعني المصطلح ما تتقنه يدا العبد أو الأمة من عمل يعود عل صاحبه أو سيده بنفع مادي.

---

(1) أبو بكر ابن قزمان، **ديوان ابن قزمان**، تحقيق ف. كورينطي (Federico CORRIENTE) (مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، 1980)، 134.

(2) المرادي، **كتاب السياسة**، 78–103–104.

(3) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ج. 1، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، 1979)، 51؛ أحمد ابن عميرة الضبي، **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** (مدريد: مطبعة روخس، 1884)، 70؛ عبد الرحمان ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج. 1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، 409 – 410.

(4) القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، ج. 4، تحقيق عبد القادر الصحراوي (المحمدية: مطبعة فضالة، 1983)، 400؛ أحمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج. 2، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1968)، 374.

(5) ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجل التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1984)، 36 – 37 – 40 – 135 – 136 – 137 – 170 – 171 – 173 – 175 – 215 – 229؛ أحمد ابن الزبير الثقفي، **كتاب صلة الصلة**، القسم 4، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب (المحمدية: مطبعة فضالة، 1994)، 104–105؛ ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ج. 3، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993)، 1387–1388.

(6) ابن الزيات التادلي، **التشوف**، 136 - 170.

(7) ترد بهذا الخصوص عبارات مثل «بيدها صنعة» بالنسبة للأمة، انظر القاضي عياض، **ترتيب**، ج. 3، 334. وعبارة «عبد صانع» بالنسبة للعبد، انظر ابن فتوح البنتي، **الوثائق المجموعة**، نسبها حسين مؤنس خطئا إلى عبد الواحد المراكشي (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1997)، 299.

وتذهب معظم الاجتهادات الفقهية إلى أن «الخدمة ليست إقرارا بالرق، إلا أن تطول الخدمة حتى تخرج عن حد الإجارة،» وهو ما أقره ابن سهل الأندلسي،[1] وأكده أبو القاسم البرزلي بقوله: «إن خدمة إنسان لآخر ليس إقرارا له بالرقبة إلا أن تكون خدمة طويلة ومدة بعيدة بحيث تخرج عن حد الإجارة.»[2] ومن خلال هذه الإفادة يتبين أن الخدمة إن امتدت فترة زمنية طويلة أفضت إلى الاسترقاق، واعتُبرت استئجارا إن اقتصرت على مدة قصيرة.

ومن هذا المنطلق نتساءل عن مدى فسح السيد المجال لعبده للعمل مدة محددة ووجيزة لصالح آخرين؟ ثم هل ثبت حصول العبد في مغرب العصر الوسيط على مقابل مادي لعمله لصالح نفسه أو لصالح سادة آخرين؟ سواء كان هذا المقابل نقدا أو عينا. وهل بإمكاننا الإقرار بوجود استفادة مباشرة للعبد مما كانت تنتجه يداه؟

لدينا شهادات عن عدم حصول عبيد على أجر، مقابل ما كانوا يقومون به من أعمال، مما يفسر اشمئزازهم منها؛ فهذا فقيه من إفريقية يدعى ابن طالب القاضي يقدم على عتق غلام كان يرعى الغنم، نظير 10 دنانير قدمها لسيده. وبلغ إشفاق الفقيه على العبد المعتق حدا جعله يأمر مولاه أن يخصص له أجرة مقابل رعيه غنمه: «وجب أن تجري له على رعايته لغنمك أجرة، فأجرى له دينارين في كل سنة.»[3] والواضح أن ظهور الأجر مرتبط بوضعية العبد وتحوله إلى مولى.

ويكشف البحث في واقع حال العبد، سواء على المستوى النظري أو العملي، عن كون ماله هو مال سيده. فقد ورد في نازلة طرحت على ابن رشد الفقيه[4] عن شروط رفع الحجر عن المرء للتصرف في ماله، فأجاب محددا لهذه الشروط في: البلوغ والحرية وكمال العقل وبلوغ الرشد. وبرر اشتراطه الحرية بقوله: «لأن العبد لا يملك ماله ملكا مستقرا، إذ لسيده انتزاعه منه فهو محجور عليه فيه، لحق الملك.»[5]

(1) القاضي أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي، **الأحكام الكبرى، وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس**، ج. 2، دراسة وتحقيق محمد عبد الوهاب خلاف (القاهرة: المطبعة العربية الحديثة، 1980)، 53.

(2) نقلا عن أبي علي ابن رحال المعداني، **الارتفاق في مسائل الاستحقاق**، مخطوط الرباط، المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، ضمن مجموع، رقم: 1079 D، ورقة 60.

(3) القاضي عياض، **ترتيب**، ج. 4، 314.

(4) أبو الوليد ابن رشد القرطبي، **فتاوى ابن رشد**، ج. 1، تحقيق وجمع المختار بن الطاهر التليلي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987)، 358.

(5) المصدر نفسه.

أما على المستوى العملي فقد نصت إشارة الحسن الوزان[1] إلى عمل عبيد/أسرى بمستودعات النجارة بمدينة فاس، مقابل أن «يعطيهم أسيادهم ما يقتاتون به بدلا من المال الذي يربحونه.»

ويفهم من إشارات مصدرية عديدة أن الطلب على الرقيق الذي كانت بيده صنعة، كان حاضرا باستمرار خلال عمليات البيع والشراء. فقد ألح ابن الحاج في إحدى نوازله، على ضرورة إثبات صنعة الأمة في عقد ملكيتها،[2] شأنها في ذلك شأن صفتها وبلدها وزوجها إن كان لها زوج. والسر في ذلك ارتباط سعر الأمة بما تتقنه من صنعة، وبالحاجة إلى تلك الصنعة، وهو ما تعبر عنه الرواية التالية: «لا حاجة لك بصناعتها، وإنما تشتريها للمتعة، فدعها فلا معنى للزيادة فيها.»[3] في حين تطالعنا روايات عديدة تسجل أن مبتاعي الإماء كانوا يقبلون على «ذوات الصنعة منهن.»[4]

وينسحب الطلب على الرقيق ذي الصنعة، على الإماء والعبيد على حد سواء، فقد وقفنا على وثيقة أثبت بها أصل المملوك واسمه إلى جانب صنعته: «مملوكه الجليقي المسمى بكذا وكذا، النجار أو البناء.»[5] ووجدت عبارات تتبع الاتجاه ذاته تخص العبد والأمة، مثل «عبد صانع»[6] و«عبدين غير صانعين»[7] والجارية «الطباخة»[8] و«الخبازة.»[9]

ويمكن التمييز في النشاط الحرفي لرقيق مغرب العصر الوسيط بين نشاط يرتبط بالسلطة، مثل البناء والعمارة والتعدين.[10] [قطاع عام] وهو ارتباط مطلق باعتبار أن صاحبه، أي العبد، لا يتلقى أجرا على عمله، في حين أن النشاط الحرفي المرتبط بالخواص، مثل غزل الصوف والنجارة والحياكة وتسفير الكتب.[11] [قطاع خاص] عبارة عن أعمال يقوم بها العبد لصالح

(1) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط. 2، 1983)، 247.

(2) أبو عبد الله محمد ابن الحاج، **نوازل الإمام ابن الحاج**، مخطوط الرباط، المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، رقم: ج 55، ورقة 200.

(3) القاضي عياض، **ترتيب**، ج. 3، 334.

(4) أبو عبد الله محمد السقطي المالقي، **في آداب الحسبة**، نشر كولان وليفي بروفنصال (بتريس: مكتبة إرنست لورو (Ernest LEROUX)، 1931)، 48.

(5) البنتي، **الوثائق**، 298.

(6) المصدر نفسه، 299.

(7) المصدر نفسه.

(8) المصدر نفسه.

(9) المصدر نفسه.

(10) انظر الجدول المثبت في نهاية هذا البحث.

(11) انظر الجدول المثبت في نهاية هذا البحث.

سيده، لقاء أجر[1] أو مقابل آخر.[2] وهنا نصل إلى طرح السؤال التالي: هل حقق هذا الأجر نوعا من الاستقلالية للعبد، ممثلة على وجه الخصوص في سبل إنفاقه له؟

وبالإضافة إلى ذلك عمل الرقيق في مجالات حرفية أخرى مثل الصيدلة، فقد كان للطبيب الأندلسي أحمد الحراني «اثني عشر صبيا صقالبة طباخين للأشربة، صناعين للمعجونات على يديه.»[3] وتفيد إشارة إلى خادم بمدينة بلنسية خلال القرن 6هـ/12م، اكتسبت خبرة من العمل في الصيدلة فتعاطت لعمل التمريض.[4]

ووردت الإشارة إلى تجنيد عبيد من أصل سوداني أو بيزنطي، في أواخر القرن 6هـ/12م، في أعمال بحرية في الجزيرة الخضراء أقصى جنوب الأندلس.[5]

وعمل العبيد في الحمامات، خاصة في الأندلس وفاس، فقد تحدث ابن خاتمة الأنصاري[6] عن دخول المرء الحمام والأوقات المناسبة له ودرجة حرارة الماء «ماء عذب فاتر بحيث يستلذ صبه على الجسد ويكون المكث فيه بمقدار ما يفرغ الخادم من تنظيف جسم المستحم من غير أن يباشر هو من أمور نفسه شيئا.» وهو ما ساد بحمامات مدينة فاس، التي يتولى الخدم بها تنظيف جسم المستحم، حسب إشارة الوزان.[7]

ومن جهة أخرى يلاحظ غياب المرأة/الأمة في النشاط الحرفي للمغرب الوسيط، عدا صنعة النسيج وحرفة البغاء.[8] ويمكن أن نجد تفسيرا لذلك ليس في كون هذه الحرف «وضيعة،» بقدر كونها تحتاج إلى قوة عضلية وبنية جسمانية قوية، لعلها لم تكن تتوفر لإماء مغرب العصر الوسيط! أما القول بعدم إتاحة الفرصة لهن للعمل خارج البيت، ففي حاجة

---

(1) ليست لدينا إشارات صريحة في هذا الصدد، غير أن مناقشة قضية مال العبد [ابن رشد، **فتاوى**، ج. 1، 358] وكذا قضية مكاتبة العبد، التي تقتضي وجود مال بيده: «أجرة العبد الذي يؤاجر نفسه،» [ابن فتوح البنتي، **الوثائق**، 514]، تفصحان عن تقاضي العبد أو الأمة أجرا على بعض الأعمال التي يقوم بها.

(2) مثل الطعام، كما في رواية الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، 247.

(3) عبد الغني أبو العزم، «أنواع الصيدلة في أنواع الأطعمة،» **مجلة أمل**، العدد 16، السنة 6، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء (1999)، 11.

(4) ابن الأبار القضاعي البلنسي، **المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي** (القاهرة: دار الكاتب العربي، 1967)، 133.

(5) VERLINDEN, l'Esclavage, T.1, 210.

(6) ابن خاتمة الأنصاري المري، **تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد**، مخطوط مدريد، الخزانة الملكية بالإسكوريال، تحت رقم: 1785، ورقة 68.

(7) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، 229.

(8) انظر الجدول المثبت في نهاية هذا البحث.

إلى مراجعة، بالنظر إلى أن الإماء المغربيات والأندلسيات كن، كما تشهد بذلك نصوص كثيرة،[1] أكثر حرية من الحرائر، وهذا مقام ليس هذا مقاله.

وهكذا ربما اقتصر عمل الإماء على صناعات منزلية محدودة، عبرت عنها الشواهد النصية بالخادم التي «بيدها صنعة»[2] و«خادمة تنسج في ناحية البيت»[3] وخادم «تبسط الصوف».[4] وكان المبتاعون يلحون على أن تكون بيد الخدم والجواري، المعروضين للبيع، صنعة ما.[5]

ويقودنا ذلك إلى ملاحظة غلبة الطابع اليدوي-التقليدي على الحرف التي امتهنها الرقيق في مغرب العصر الوسيط، بمعنى أنها لم تكن حرفا إنتاجية يراد تسويق منتجاتها، مما يعود بالنفع على أصحابها وأسيادهم. وإنما كانت حرفا مرتبطة بالخواص، على اعتبار أن الدولة لم تكن تقدم للعبد مقابلا ماديا غير إطعامه، فضلا عن حاجيات تخص حياته اليومية البسيطة.

وتتجاذب موضوع الدراسة ثنائيات عديدة، لم نستطع إبرازها، على الرغم من تنويع مصادرنا، مثل ثنائية عمل عبيد المدينة مقابل البادية، وثنائية عمل العبيد الذكور مقابل العبيد الإناث، وثنائية عمل العبيد الشباب مقابل الأطفال أو الشيوخ، وأخيرا ثنائية عمل عبيد الدولة مقابل الخواص. ويبقى الأمل معقودا عما قد تكشف عنه نصوص أخرى في هذا الصدد.

وهكذا إذا كان الجدول الملحق بهذا المقال يقدم صورة للنشاط الحرفي للرقيق في مغرب العصر الوسيط، فإن هذه الصورة تظل «باهتة.» مصداق ذلك عدم تمكننا من الإجابة عن مجموعة من الأسئلة،[6] من قبيل:

1 – هل مارس العبيد ما مارسوه من مهن تحت ضغط أسيادهم؟ أم أن هؤلاء رفضوا نقل تجاربهم إلى عبيدهم، مما يفسر ندرة تعاطيهم للحرف. فظلوا مرتبطين بالبيت والمزرعة والقافلة التجارية والبلاط.

---

(1) انظر نماذج واردة لدى أبي محمد بن حزم، **طوق الحمامة في الألفة والألاف**، ضبط وفهرسة أحمد شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، 23–24.

(2) القاضي عياض، **ترتيب**، ج. 3، 334؛ أبو عبد الله محمد بن حارث الخشني، **قضاة قرطبة** (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966)، 31.

(3) الخشني، **قضاة**، 51.

(4) ابن قزمان، **ديوان**، 134.

(5) السقطي، **في آداب**، 48.

(6) لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة كتاب: عبد الإله بنمليح، **الرق**، خاصة المبحث الموسوم ب: «الرقيق والنشاط الحرفي،» 350–358.

2 – هل استفاد الرقيق من صنعته؟ بمعنى هل كان يتلقى أجرا على ما كانت تنتجه يداه؟ وكم كانت قيمة هذا الأجر؟

3 – إن تعدد الإشارات المصدرية إلى عملية المكاتبة، باعتبارها أحد أشكال العتق، سواء عبر نصوص تاريخية أو وثائق عدلية تقدم أنموذجا للصيغة التي يجب أن تصاغ بها،[1] أو عبر وقائع قائمة، دونتها كتب النوازل الفقهية على الخصوص،[2] يثبت أنه توفر للعبد/ الأمة مال ما. نتساءل إن لم تكن له حرفة ما فمن أين كسبه؟

4 – فيما كان العبد ينفق الأجر الذي حصل عليه مقابل إنتاجه الحرفي؟ وهل كانت لسيده عليه سلطة فعلية في تحديد أوجه صرفه؟ إذ مما لا شك فيه أن العبد كان يسخر المال الذي جمعه، رغم وضاعته، لتلبية بعض حاجياته اليومية أو مشاريعه الحياتية من زواج أو مكاتبة [شراء الحرية].

5 – نصت إحدى التخريجات الفقهية، وإن كانت تهم شرق البلاد الإسلامية، على أنه «ليس للعبد أن يعمل لنفسه في الليل ولا لغير مولاه، إلا بإذنه.»[3] وهو ما يفهم منه أنه كانت هناك إمكانيات لحصول العبد على المال، سواء بالعمل لصالح نفسه ليلا أو من دون إذن سيده؛ لكن السؤال هو: هل سمح السيد في مغرب العصر الوسيط بمثل هذه الممارسات أو تغاضى عنها على الأقل؟

جدول أهم الحرف التي مارسها الرقيق في مغرب العصر الوسيط

الحرفة	المكان	الزمان	الجنس	المصدر
الحفر عن الملح	تغازى	ق 8 هـ/14م	ذكور	ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة** (بيروت: دار التراث، بيروت، 1968)، 658.
غزل الصوف	إفريقية	قبل ق 6هـ/12م	إناث	القاضي عياض، **ترتيب المدارك**، ج. 5، تحقيق محمد ابن شريفة (المحمدية: مطبعة فضالة، د.ت)، 110.
نسيج	قرطبة	ق 4هـ/10م	إناث	الخشني، **قضاة**، 51.

(1) انظر بهذا الخصوص عقد الكتابة لدى القاضي أبي إسحاق الغرناطي، **الوثائق المختصرة**، إعداد مصطفى ناجي (الرباط: مركز إحياء التراث المغربي، 1988)، 45.

(2) انظر نماذج منها: مكاتبة من القرن 4هـ/10م بين سيد وخادمه، الونشريسي، **المعيار**، ج. 9، 206، ج. 9، 236؛ فضلا عن إشارة سريعة لدى أبي القاسم بن سلمون الكناني [ق 8هـ/14م]، **العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام**، مخطوط الرباط، المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، تحت رقم: 670 د، ورقة 27–28.

(3) الفضل بن الحواري، [القرن 4هـ/10م] جامع الفضل بن الحواري، مسقط، 1985، ج 1، ص98.

عمارة	سلا	ق 6هـ/12 م	ذكور	أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج. 2، تحقيق جعفر ومحمد الناصري (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954)، 195.
الخشب	فاس	ق 9-10هـ/15-16 م	ذكور	الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ج. 1، 247.
البناء	مراكش	579هـ/1183م	ذكور	ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، تحقيق جماعة (بيروت: دار الغرب الإسلامي، الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985)، 154
الدباغة	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	إسماعيل بن الأحمر وآخرون، **بيوتات فاس الكبرى** (الرباط: دار المنصور، 1972)، 24.
الحياكة	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
الخرازة	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
نسج الجلابيب	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
الحجامة	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
حفر القبور	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
حمل الموتى	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
التمريض	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه؛ ابن الأبار، **المعجم**، 133.
النجارة	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
طحن الحبوب	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
الأسلحة	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
الفخار	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
التعدين [النحاس والحديد]	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
صناعة القدور	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه، 25.
عصر الزيت والصابون	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
صناعة الفانيذ	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
تسفير الكتب	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
تجبيص	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.

تزويق الخشب	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
الزليج	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
صناعة المفاتيح	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
التعدين [الصفر]	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
خدمة الحمام	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
السقاية	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
الصياغة [عملة وحلي]	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
حفر الآبار	الأندلس	العصر الوسيط	ذكور	المصدر نفسه.
خدمة المراكب	-	ق6هـ/12 م	ذكور	القاضي عياض وولده محمد، **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**، تحقيق محمد ابن شريفة (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990)، 236.
البناء	الأندلس	العصر الوسيط	-	VERLINDEN, *l'Esclavage*, T.1, 239.
المعادن	الأندلس	العصر الوسيط	-	Ibidem.
صناعات منزلية	الأندلس	العصر الوسيط	-	Ibidem.
البغاء	مراكش / الأندلس / جبل نفوسة	ق6هـ/12 م	مختلط	مجهول، **الاستبصار**، نشر سعد زغلول عبد الحميد (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1985، 145؛ السقطي، **في آداب الحسبة**، 49؛ ابن عبد الملك الأنصاري، **الذيل والتكملة**، السفر 5، القسم 2، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، د.ت.)، 529–531.